

تسهيل الدراسة الدينية

للأستاذ داود حمدان

بمناسبة ما أثير من جدل حول تيسير قواعد اللغة العربية
يصح للإنسان أن يبحث في تسهيل الدراسات الدينية أيضاً ،
فإنها في حالها الحاضر من الصعوبة وانغمم بحيث تستدعي البحث
وكثرة التفكير ، ولعل هذه الكلمة تفتح الباب للباحثين .
والله التوفيق

لا شك أن الدراسة الدينية في حالها الحاضر صعبة ، وغير
مؤدية إلى فائدة ، لا سيما في تلميها العالي ، وبالموازنة بين الماضي
والحاضر يظهر الفرق العجيب

لما كان الرسول عليه الصلاة والسلام يقوم بتبليغ الدين ،
عملاً بقوله تعالى : (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ،
وإن لم تفعل فما بلغت رسالته) كان الرجل يأتي إلى النبي صلى الله
عليه وسلم وهو على دين مما يعرف الجاهليون إذ ذاك فيمكنك عنده
ساعة من زمان يتلو عليه النبي فيها بعض آي القرآن الحكيم ،
فيقوم الرجل من عنده وهو مسلم حسن الاسلام ، مؤمن كامل
الايان ، عالم بما أوجبه الله وما حرمه عليه^(١)

واليوم يذهب المسلم المولود من أبرين مسلمين إلى أعلى معاهد العلم
الديني فيشتغل بضع عشرة سنة ، ثم يرجع إلى قومه وقد زادت
الفوارق بينه وبين الدين كما زادت بينه وبين الناس
وكان الناس يدخلون في دين الله أفواجا ، فيتلقون القرآن
ويتدارسونه ، فيملأون الأرض علماً وحكمة ، كما يملأونها طهراً
وعدلاً وملاحاً

واليوم يتخصص أه فرم ذكاه ، وأكثرم اجتهاداً ،
أسبرهم على الدرر ، سنوات عديدة وقصاراه أن يحصل بعض
ما عدوه ، ويتحلى بحفظ بعض ما قالوه . واليوم يدرس المدارس
بضع عشرة سنة ويظل الهامي أكثر منه ورعاً وتقوى

بهذه الموازنة يظهر بكل وضوح أن تلميم الدين في الماضي
كان مؤدياً إلى النفع ، وأعظم الفائدة ، وأنه في الحاضر قليل
النفع والفائدة ، بل صار أعظم الضرر

(١) في الروح الحمدي قريب من هذا المعنى

فلازم يرجع السبب في هذا الاختلاف بين الماضي والحاضر ؟
هذا سؤال لم يكن أحد ليعيا بالجواب عنه إذا علم من أين
كان يؤخذ الدين بالأمس ، ومن أين يؤخذ اليوم

إن المسلمين كانوا يأخذونه من القرآن ، ثم صاروا يأخذونه
من غير القرآن ، وما القرآن عندهم — والحالة هذه — إلا مادة
كالية . ومما أنكروا هذا بأنفسهم فهم ملزمون به من عملهم .
ألا ترون أن طالب العلم الديني يدرس كتب الفقه ويرف أحكام
الدين — في زعمهم — ويدرس كتب التوحيد والمقائد قبل أن
يدرس القرآن وتفسير القرآن ؟ بل ربما لا يحضر دروس التفسير
أسلاً ، وإن هو حضرها فلا يستطيع أن يأخذ منها حكماً واحداً
لأن طريقها لا تعود الاستقلال في الفهم ولأنه تشأ على ذلك

في صدر الاسلام كان النبي عليه السلام لا مادة عنده للدين
غير القرآن ، فنه كان يعلم الناس ، ويتلاوته عليهم كانوا يسلمون
لما يأخذهم من روعة بلاغته ، وصدق لهجته ، والشعور بعجزه .
وبالقرآن كان الصحابة ومن بعدهم يلفون الدين . وفي تلك
الأوقات كان التابعون في علم الدين أكثر من أن يحصوا ،
بل تستطيع أن تقول إنه لم يكن أحد حينئذ يقلد أحداً فيه ،
وإذا جهل أحد شيئاً فاعما كان يرشده العالم به للدليل ولا يلقنه
الحكم تلقيناً

ولما فشا التأليف ، وأكثرت المتعلمون من قراءة الكتب التي
ألفها أصحابها فيما استنبطوه من الأحكام الفقهية ، والمجادلات
المذهبية ، نقص معدل النبوغ ، ثم صار يزداد نقصاً كلما
كثرت المؤلفات الفقهية وأقل الناس على دراستها . فلما
كان العصر الخامس بدت تلك القولة المجرمة الأثيمة ، ألا وهي

سد باب الاجتهاد ، وصرح بعض الفقهاء أن الاجتهاد بعد
الأربائة منقطع ، وذلك لضعف تفهم بأنفسهم ، وسوء ظنهم
بالناس . فضمت المهم ، وما زالت الأمة إلى الزراء حتى عصرنا
هذا . فالسالمون من العصر الخامس حتى اليوم ، بل من العصر
الثالث لا يأخذون الدين إلا من كتب الفقه والكلام طبقة عن
طبقة ؛ فكل طبقة تنظر في كلام سابقتها وتشرح أو تعلق أو
تؤول ، حتى وصلنا الدين بمائة الحاضرة وبسبارة صريحة .
وصلنا رذر ببيد عن القرآن ألفاً وأربائة سنة . إى والله ،

والطبيب بما يرى من دقائق تركيب الجسم ، والحراث مثلاً يستدل عليه بما يقع تحت حسه من نبات وحيوان وكيفية نشأته ونظام حياته — أقول كان الدين سهلاً ولكن كتب العقائد هي التي جعلته صعباً عسير الفهم ، لأنها من الكبر والاتساع بحيث يحتاج إلى سنين لدراستها ، ومن الدقة والعمق بحيث يُعسر فهمها الأذكياء والمباشرين . وكذلك الفقهاء الذين فرعوا الفروع ، وفرعوا من الفروع فروعاً (وولدوا البنات من الأمهات ، كما يقول ضارب الزمل) حتى فرضوا المستحيلات ، فهؤلاء قد طمسوا على سماحة الدين ، وجعلوه كثير التكاليف ، كثير الحشو . وأذكر مما يحضرنى الآن مسألتين : قالوا : بمد أن يتوضأ للتوضيء أين شئت أعضائه أم لا ؟ وجعلوها مسألة خلافية . ومن العبث والمغفلة أن يقال إن هذه المسألة تدخل في حساب الدين ، فالقصد الطهارة وقد حصلت بالوضوء ، ولا ينظر الدين إلى ما وراء هذا . والمسألة الثانية أهم أدخلوا في الدين ما ليس منه كسألة الأزياء والملابس ، فألف بعضهم كتاباً في سنة المهامة . وما لبس النبي المهامة إلا لأن بيئته كانت هكذا تقتضى ، ولو نشأ في بيئة أخرى تلبس غير المهامة للبس كما يلبسون ، لأنه عليه السلام ماجاء لتغيير الأزياء ، ولكن لتغيير العقائد

بهذا الحشو وأمثاله امتلأت كتب الفقهاء ، وبهذا وأمثاله يضع الدين يتعلمون العلوم الدينية زهرة شبابهم ، وصفوة عمرهم وقوة تفكيرهم ، حتى إذا انتهوا منه كانوا بعيدين عن الدين مراحل عديدة ، مقدارها اليوم ألف وأربعمائة سنة^(١)

لقد جرى إصلاح في منهج دراسة الدين في بعض الماهد الدينية ، وينبغي أن يجري الإصلاح أيضاً في مادة الدراسة الدينية ، وذلك يكون بأمرين : الأول : دراسة اللغة العربية بطريقة سهلة غير طريقة الكتب التي تدرس الآن . والثاني : دراسة القرآن نفسه ، وأخذ الأحكام والأخلاق والمعارف الدينية منه بقطع النظر عن المذاهب ، وطريقة ذلك كما يلي :

(١) المقول أن العلوم تترقى ، وأن علم السابق يكون نواة في علم اللاحق ولكن هذا لا يكون في علم الدين ، لأن القرآن أعلى من مستوى كل المقول . فإذا ترك درسه لن تصل المقول إلى مثل هديه ، ومقتضى ترقى المقول أيضاً أن كل عقل للاحق يدرس القرآن نفسه فيستخرج منه نقائس عجيبة

ألفاً وأربعمائة سنة ونحن ببيدون عن القرآن ، وإن كنا نتلوه للتبرك ، وذلك بسبب الانواء في الدراسة . وقد صدق علينا المثل المأثور : نمسك من الدين بذيله : نترك رأس النع وهو القرآن ، ونأخذ من ذلك الرشاش المتطاير منه إلى أفهام الناس . أفلا ينظر المسلمون إلى أي هوة وصلوا من جراء هذا ؟

كانوا عند رالحق الرسول بالرفيق الأعلى أمة واحدة ، لا يعرفون لهم إماماً إلا القرآن . وأصبحوا لا تحصى فرقتهم ومذاهبهم وشيعتهم . ولكل فرقة أو شيعة إمام غير القرآن . لا يقولون قائل إن السبب في بعض الاختلافات كان سياسياً . فإن الاختلافات السياسية كان يبين أن تموت يموت معها ، ولكن بقاء الكتب ودراستها فيما بعد ، دون دراسة القرآن الكريم يعقل مجرد عن تأثير تلك الاختلافات ، هو الذي أبقاها

وكان المسلمون لا يتركون القرآن إلى سراه ، ولا يبحثون عن حديث الرسول في قضية ما إلا إذا لم يجدوا لها نصاً في كتاب الله ، كما كان يفعل أبو بكر وتمر وسائر الصحابة . فإذا اضطروا إلى حديث أخذوه بكامل التحري . وأصبحوا اليوم (ولديهم مئات الألوف من الأحاديث) يميلونها في سرية القرآن ويختلفون : هل ينسخ الحديث القرآن أو يقيد مطلقه ويفصل إجماله ؟ وصاروا يؤولون كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ليوافق كلاماً روده ، ولو حققوا لارووه . وذهبوا إلى أبعد من هذا فأولوا القرآن ليوافق مذاهبهم ونهجمهم ، وأقربهم اعتدالا أول آية التيمم لتوافق المذاهب المعروفة وعددها من المشكلات^(١) ، ولم يجز لنفسه أن يؤول تلك المذاهب لتوافق القرآن . ولعل أصحاب المذاهب لو انتهوا لخالفه القرآن رجعوا إليه

وكان الدين سمحاً سهلاً قليل التكاليف ، دستوي في فهمه البدو والحضر ، والأذكياء والبلداء ، والمتعلمون والعموم ، لكونه ديناً عاماً لا يختص بطبقة دون طبقة ، ولا يقبل دون قبيل . فن المقول ألا يختلف في إدراك عقيدته ، ومعرفة تكاليفه أقل الناس إدراكاً عن أعلام كاهن ، ولكن الاختلاف إنما يكون في طرق الاستدلال . فالفيلسوف يستدل على وجود الله بفلسفته ،

١ - في دور التعليم الإشرافي

من اللغة يعطى التلاميذ جملاً وقطعاً من منشور الكلام البليغ بقدر ما تتسع طاقتهم لحفظه ، ومن الغلط أن يختار لهم من أقوال المصنوع المشاحرة ، فإن القصد أن يقرأوا من لغة القرآن ، وتتجنب الألفاظ الغريبة . وكل ما شا كل ألفاظ القرآن فهو مأوس وليس بغير . وكلما ارتقى التلاميذ زاد لهم في المقدار الذي يحفظونه . وعند شرحهم شرح بكلمة أو كلمتين ؛ ويستطيع المعلم الحاذق أن يبين للتلاميذ موقع الكلمة من رفع أو نصب الخ باختلاف الجمل ، وبالتكرار تنطبع في ذاكرتهم ، فيتمدون النطاق الصحيح بسهولة ، ويمارسهم الكلام البليغ يترن فيهم الذوق العربي . وبعد الثالث الابتدائي تشرح لهم الجمل شرحاً محبباً بسيطاً ويزاد كلما ارتقوا . ومن الرابع فصاعداً تكون اللغة الفصحى لغة الدراسة في جميع المواد ولغة التخاطب ، ويستعملون ما حفظوا من الكلام البليغ . وليس هذا غريباً بين العرب ، حتى ولا بين غيرهم ، فإن الانكليزية لغة الدراسة والتعليم في جميع مدارس الهند ، وليست أسهل من اللغة العربية . هذا من اللغة . ومن القرآن يحفظ التلاميذ أكبر قسم يمكنهم على الترتيب : من سورة الناس فصاعداً . ويختار لهم الآيات التي فيها أحكام التكليف وتشرح لهم بإيجاز . ويختار لهم آيات أخلاقية وتشرح بإيجاز

٢ - في دور التعليم الثانوي

من اللغة يعطى التلاميذ الشيء الكثير من منشور القول ومنظومه على أن يكون من أقوال المصنف الأول والثاني ، ويشرح لهم شرحاً يشمل النحو والمعاني بتحليل تتحملة عقولهم ، ويزاد كلما ارتقوا . ومن القرآن يحفظون قدرأ كافياً مرتباً أو مختاراً ويدرسون آيات الأحكام بتوسع ، ويقدم الأثر فالأثر ، وتؤخر مثل أحكام الطلاق والامان إلى السن المناسبة ، ويعودون الاستنباط بأنفسهم ، ويدرسون قسطاً وافراً من آيات الآداب والأخلاق والعبر ، والآيات الكونية والاجتماعية ، ويحفظون شيئاً من الأحاديث المختارة في الأدب . الاجتماع ، وتكون لغة الدراسة والتخاطب اللغة الفصحى كما سبق

٣ - في دور التعليم العالي

(وهذا لا يكون إلا في معاهد العلم الديني ، لأن غيرها لا تدرس الدين عادة في الصفوف العالية) في هذا الدور تدرس آداب اللغة العربية بتوسع ، وأغنى الآداب نفسها ، لا تاريخها ، فإن دراسة تاريخ الآداب شيء قليل الفائدة ، وتشمل دراسة الآداب دراسة الحديث الشريف على أنه نمط من أنماط الكلام البليغ . ويدرس القرآن كله بلا استثناء دراسة وافية تؤخذ منها العلوم والمعارف الاسلامية ، والبدايح اللغوية ؛ ويراعى في هذا الدور أن يكون التدريس مجرد إرشاد لطريق الاستنباط وتطبيق القواعد . وبطالب اللغة الاستنباط بأنفسهم ، وبمعرفة الخلق والصواب بعرضه على مقاييس العلم والآداب . ويدرس الحديث على أنه مادة من مواد الدين تؤخذ منها الأحكام والحكم والمواعظ ، ولكن ينبغي أن تكون شروط صحة الحديث غير الشروط الحاضرة فيحذف أولاً كل ما نشأ أو يظن أنه نشأ عن أسباب سياسية ، أو لتأييد فرقة ، أو بقصد الهدم كالاسرائيليات ، ثم يجعل المعنى حظ من الاعتبار كما للرواية ، أي ليس كل ما استكمل شروط الرواية كان صحيحاً حتى يستكمل شروط صحة المعنى أيضاً . وفي هذا الدور يدرس النحو في بعض الكتب المتبررة المؤلفات قديماً تثبتت لما تلتفتوه من القواعد أثناء الشرح ، وزيادة في البحث ، وفي نهاية هذا الدور أرتق دور التخصص تدرس بعض كتب الفقه والأصول والتوحيد للاطلاع والبحث . لا لتأثر خطواتها وتقليدها

بهذا تسهل دراسة الدين وتوثق أكلها بأذن ربها ، وبلا حظ هنا أن الكلام في دراسة الدين وأنه ليس المقصود أن تقتصر الدراسة في المدارس على مادتي اللغة والقرآن فإن مواد العلوم الأخرى لها مكانها من برامج الدراسة

ليس المجال متسعاً للتفصيل وللشرح فهذه اقتراحات يمكن تقديمها وتحسينها وزيادة عليها ، ولكن لا يمكن قط أن يقال : إن دراسة كتب الفقه أجدي في الدين من دراسة القرآن وأحب أن ألفت النظر إلى أنه ليس بيننا وبين الناشئين الأولين في علوم القرآن إلا إتقان اللغة العربية ، وأنها ليست صعبة كما يتصورون ، وأن ثلاث سنين تكفي لاتقان علومها إذا هذبت